هل كل أبناء يعقوب (عس) انبياء

للتحقق من قول كثير من المفسرين بنُبُوَّة جميع ابناء يعقوب (عس) لا بدَّ من النظر في بعض الآيات والأحاديث والمعاجم، فكلمة اصطفى كما ورد في معجم مختار الصحاح، من صفا، وصَفا الشراب يَصفو صَفاءً، والصفاء خلاف الكدر، و(الصفو) كما ورد في مقاييس اللغة، أصل واحد يدل على الخلوص من كل شَوْب، وهو ضد الكدر، فمحمد ﷺ صفوةُ الله تعالى وخِيرَتِه من خَلقه ومُصْطَفاةُ، والأَنْبِياءُ مُصْطَفَوْنَ". أي أنهم من خِيار وخالصة البشر بلا عيب.

ومن المهم في هذا الموضوع الإشارة إلى بعض مراحل الخلق، فالمرحلة الأولى هي علم الله تعالى بما هو كائن للأبد، إلى أن يدخل أهل الجنة جنَّتهم ودرجة ونعيم كل نفس فيها من إنس وجن، ويدخل أهل النار جهنم ودرجة شقاء كل نفس من إنس وجن فيها، كلٌ للأبد، وقد بيّن تعالى طرفًا من ذلك في قوله تعالى في سورة الأعراف:{ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ}﴿١١﴾

ولما ورد في مسند الإمام أحمد عن العرباض بن سارية السلمي (رلع) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمُنجَدِلٌ في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبِشارَة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النَّبِيِّين صلوات الله عليهم". ومُنجَدِل في طينته، أي قبل نفخ الروح فيه.

ومن عِلمِه تعالى بما هو كائن للأبد اصطفاء أنبيائه ورُسله (ع‌س) كقوله تعالى في سورة الأعراف:{ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}٣٤ كما اصطفى تعالى رسوله ﷺ وأصحابه من قبل، لما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن مسعود (ر‌ع) قال:" إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه".

وكذلك اختياره تعالى لجميع أنبيائه ورسله وأصحابهم، كما اصطفى تعالى هذه الأمة في قوله تعالى في سورة فاطر:{ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ}٣٢.

أمّا المرحلة الثانية فهي كتابة كل ما سيكون للأبد في أم الكتاب، إلى أن يدخل أهل الجنة جنَّتهم ودرجة ونعيم كل نفس فيها من إنس وجن، ويدخل أهل النار جهنم ودرجة شقاء كل نفس من إنس وجن فيها، كلٌ للأبد، لما ورد في سنن الإمام الترمذي عن الوليد بن عبادة بن الصامت (ر‌ع) قال: حدثني أَبِي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" إن أَوّلَ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فَجرى بما هو كائن إلى الأبد".

والمرحلة الثالثة هي بدء خلق الخلق إلى قيام الساعة كما كان في علم الله تعالى في أم الكتاب.

وقد أشار تعالى إلى بعض معايير اصطفاء رُسله في قوله تعالى في سورة البقرة:{ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ}﴿١٢٤﴾ كما لا ينبغي لنبيٍ أن تكون له خائنة أعين"، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون كذّابًا" كما قال ﷺ.

وقد بيّن تعالى سلوك إخوة يوسف (عس) لأبيه في قوله تعالى في سورة يوسف:{ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}﴿٦٩﴾ إشارة إلى ظُلم إخوة يوسف لأبيه له (عس) ولأخيهم لأبيهم، فاستنقذ يوسف(عس) أخيه منهم بوضع صاع الملك في وعاء أخيه.

وكان بغض إخوة يوسف (عس) لأبيهم معلوم ليعقوب (عس) لقوله تعالى في سورة يوسف:{ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}﴿٥﴾.

وقد خصَّ تعالى يوسف لِنُبَوَّته دون اخوته لأبيه لقوله تعالى:{ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}﴿٦﴾ وبيّن الرسول ﷺ أنّ يوسف (عس) هو المصطفى دون إخوته لما ورد في صحيح الإمام البخاري عن ابن عمر (رلع) عن النبي ﷺ أنه قال:" الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن

الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"، ولم يقل أبناء يعقوب (عس).

وقد أجمع إخوة يوسف (عس) ظلمًا على التخلص من يوسف (عس) لقوله تعالى في سورة يوسف:{ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ}﴿١٥﴾.

كما بيّن تعالى تكرار كذب إخوة يوسف لأبيهم في قوله تعالى:{ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ} وليسوا كذلك، وفي قوله تعالى:{ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}﴿١٢﴾ وهم كاذبون، وفي قولهم:{ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا} كذبًا، وفي قوله تعالى:{ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ} وفي قوله تعالى:{ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ}.

وقد وصف تعالى إخوة يوسف بالمكر في قوله تعالى في سورة يوسف:{ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ}﴿١٠٢﴾ كما وصفهم يوسف (عس) بالشر في قوله تعالى:{ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ}﴿٧٧﴾ وكل ذلك يتنافى مع معايير الاصطفاء من الله تعالى.

أمّا كلمة" اثنى عشر أسباط" والتي ربما أدت إلى الاعتقاد بأنّهم أبناء يعقوب (عس) قي قوله تعالى في سورة الأعراف:{ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ ...}﴿١٦٠﴾ فذكر الأسباط لم يكن قبل موسى (عس) وكان تقطيعهم عقوبة لهم لعلهم يتوبون لقوله تعالى في سورة

الأعراف:{ وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}﴿١٦٨﴾.

فالأسباط ليسوا أبناء يعقوب (ع‌س) وقد أوحى تعالى للأسباط في قوله تعالى في سورة النساء:{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً}﴿١٦٣﴾ ولم يذكر تعالى في أبناء يعقوب (ع‌س) أنه أوحى إليهم، ختامًا فلو كان كل أبناء يعقوب (ع‌س) أنبياء، لكانت مكانته في القرآن أعلى من مكانة إبراهيم (ع‌س).

الخلاصة: -

لا يمكن أن يكون أبناء يعقوب (ع‌س) أنبياء إلّا يوسف (ع‌س).